وُلـد الهدى

أحمد شوقي و مدح الرسول ﷺ

وُلد الهدى فالكائنات ضياء
وفمُ الزّمان تبسُّم وثناء
الرّوح والملأ الملائكُ حَولهُ
للدين والدُّنيا به بُشَراءُ[1]
والعرش يزهو والحظيرة تزدهي
والمنتهى والسِّدرةُ العصماء[2]
وحديقةُ الفرقان ضاحكةُ الربى
بالتَّرجُمانِ شَذِيّةٌ غنّاءُ[3]
والوحي يقطر سَلسَلاً من سَلسل
واللوح والقلم البديعُ رواءُ[4]
نُظِمَتْ أسامي الرُّسْلِ فهي صحيفةٌ
في اللوح واسمُ محمّد طُغرَاءُ[5]
اسمُ الجلالة في بديع حروفِهِ
أَلِفٌ هنالك واسم طه الباءُ

يا خير من جاء الوجود تحيَّةً
من مُرْسَلين إلى الهدى بك جاؤوا
بيتُ النبيين الذي لا يلتقي
إلا الحنائفُ فيه والحُنفاءُ[6]
خيرُ الأبوّةِ حازَهم لك آدم

دونَ الأنام وأحرزَتْ حَوّاءُ

هم أدركوا عِزَّ النبوّةِ وانتهت

فيها إليكَ العزَّةُ القعساء

خُلِقت لبيتكَ وهو مَخلوقٌ لها

إن العظائِم كفؤها العظماءُ

بكَ بَشّرَ اللّه السّماء فزُيِّنَت

وتضَوَّعت مسْكاً بك الغبراءُ(٧)

وبدا محيّاك الّذي قَسماتُه

حَقٌّ وغرتُه هدًى وحياءُ(٨)

وعليه من نورِ النبوّةِ رونقٌ

ومن الخليل وهَدْيِهِ سيماءُ(٩)

أثنى المسيحُ عليه خلفَ سمائه

وتهلَّلت واهتَزتِ العذراءُ(١٠)

يومٌ يتِيهُ على الزّمان صَبَاحه

ومَساؤه بمحمّد وضّاءُ

الحقُّ عالي الركنِ فيه مُظَفَّرٌ

في المُلكِ لا يعلو عليه لواءُ

ذعِرَت عروشُ الظالمين فزُلزِلت

وعلَت على تيجانِهم أصداءُ

والنّار خاوية الجوانب حولَهُمْ

خَمَدَتْ ذوائِبُها وغاص الماءُ[١١]
والآي تَتْرى والْخَوَارقُ جَمَّة
جبريلُ رَوَّاحٌ بها عَدّاءُ[١٢]
نِعْمَ اليتيمُ بَدَت مَخايلُ فضلِهِ
واليُتمُ رزق بعضُهُ وذكاءُ[١٣]
في المهد يُستَسْقى الحيا برجائه
وبقصْدِهِ تستدفع البأساءُ[١٤]

تسوي الأمانة في الصّبا والصدق لم
يعرفْهُ أهل الصدق والأمناءُ
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا
منها وما يَتَعَشَّقُ الكبراءُ
لو لم تُقِمْ ديناً لقامت وحدَها
ديناً تُضِيءُ بنُورِهِ الآناءُ
زانتك في الخلقِ العظيم شمائلٌ
يُغرَى بهنّ ويولعُ الكُرماءُ
والحسنُ من كرم الوجوهِ وخيرُه
ما أوتي القُوّادُ والزعماءُ
فإذا سَخَوْتَ بلغت بالجود المدى

وفعلت ما لا تفعلُ الأنواءُ[١٥]

وإذا عَفَوْتَ فقادراً ومقدّراً

لا يستهين بِعفوك الجُهلاءُ

وإذا رحمْتَ فأنت أُمٌّ أو أبٌ

هذان في الدُنيا هما الرُّحَماءُ

وإذا غَضِبْتَ فإنما هي غضبةٌ

في الحق لا ضِغنٌ ولا بغضاءُ[١٦]

وإذا رضيتَ فذاك في مرضاته

ورِضَى الكثير تَحَلُّمٌ ورِياءُ[١٧]

وإذا خَطبْتَ فللمنابر هِزَّةٌ

تَعْرو النَّدِيّ وللقلوب بكاءٌ[١٨]

وإذا قضيتَ فلا ارتيابَ كأنّما

جاء الخصومَ من السماء قضاءُ

وإذا حَمَيْتَ الماء لم يُورَدْ ولو

أن القياصِرَ والملوكَ ظِماءُ

وإذا أجَرتَ فأنت بيت الله لم

يدخل عليه المستجير عداءُ

وإذا ملكت النفسَ قمْتَ ببرّها

ولو أن ما ملكت يَداك الشاءُ

وإذا بنيتَ فخيرُ زوْج عِشرة
وإذا ابْتَنَيْتَ فدونكَ الآباءُ[١٩]
وإذا صحبت رأى الوفاءَ مجسماً
في بردك الأصحابُ والخلطاءُ
وإذا أخذتَ العهدَ أو أعطَيْتَهُ
فجميعُ عَهْدِكَ ذمّةٌ ووفاءُ
وإذا مَشَيْتَ إلى العدا فغضَنفَرٌ
وإذا جريْتَ فإنكَ النّكباءُ[٢٠]
وتَمُدُّ حِلْمَكَ للسفيهِ مُداريا
حتّى يضيقَ بِعرضِكَ السُفهاءُ

في كل نفْسٍ من سُطَاكَ مهابةٌ
ولكل نفس في نداكَ رجاءُ[٢١]
والرأي لم يُنْضَ المُهَنّدُ دونه
كالسّيفِ لم تَضرب به الآراءُ[٢٢]
يا أيّها الأمّيُ حسبُك رتبةً
في العلمِ أنْ دانَتْ بكَ العلماءُ
الذكرُ آية ربّكَ الكبرى التي
فيها لباغي المعجزاتِ غناءُ[٢٣]

صَدْرُ البيانِ لَهُ إذا التقت اللغى
وتقدّم البلغاءُ والفصحاءُ[٢٤]
نُسِخَتْ به التوراةُ وهي وضيئة
وتخلّف الإنجيلُ وهو ذُكاءُ[٢٥]
لما تمشّى في الحجاز حكيمُه
قضّت عكاظُ به وقام حراءُ[٢٦]
أزرى بمنطِقِ أهلِهِ وبيانهم
وحيٌّ يقصِّرُ دونه البلغاءُ[٢٧]
حسدوا فقالوا شاعرٌ أو ساحرٌ
ومن الحسود يكون الاستهزاءُ
قد نال بالهادي الكريم وبالهدى
ما لم تَنَلْ من سؤددٍ سيناءُ
أمسى كأنك من جلالك أمةٌ
وكأنه من إنسِه بَيداءُ
يُوحي إليك الفوْزُ في ظلماته
متتابعاً جُلّى به الظلماءُ
دينٌ يشيّدُ آيةً فِي آيةٍ
لبنائه السُوراتُ والأضواءُ
الحقُّ فيه الأساسُ وكيف لا

واللّٰهُ جلَّ جلاله البنّاءُ
أما حديثُكَ في العقول فمشْرَعٌ
والعلمُ والحِكَمُ الغوالي الماءُ[٢٨]
هو صِبْغةُ الفرقان نفحةُ قُدْسِهِ
والسين من سُوراته والراءُ[٢٩]
جَرتِ الفصاحةُ من ينابيع النُهى
من دوْحِهِ وتفجَّر الإنشاءُ[٣٠]
في بحرِهِ للسابحين به على
أدبِ الحياةِ وعلمِها إرساءُ
أتتِ الدُّهُورُ على سُلافته ولم
تَفْنَ السُّلافُ ولا سَلا الندماءُ[٣١]

بك يابن عبدالله قامت سمحةٌ
بالحقِّ من مِلَلِ الهدى غراءُ[٣٢]
بُنيت على التوحيد وهي حقيقةٌ
نادى بها سُقراطُ والقدماءُ[٣٣]
وجد الزعافَ من السُّموم لأجلها
كالشُّهْدِ ثم تتابَعَ الشُّهَداءُ[٣٤]
ومشى على وجه الزّمان بنورها

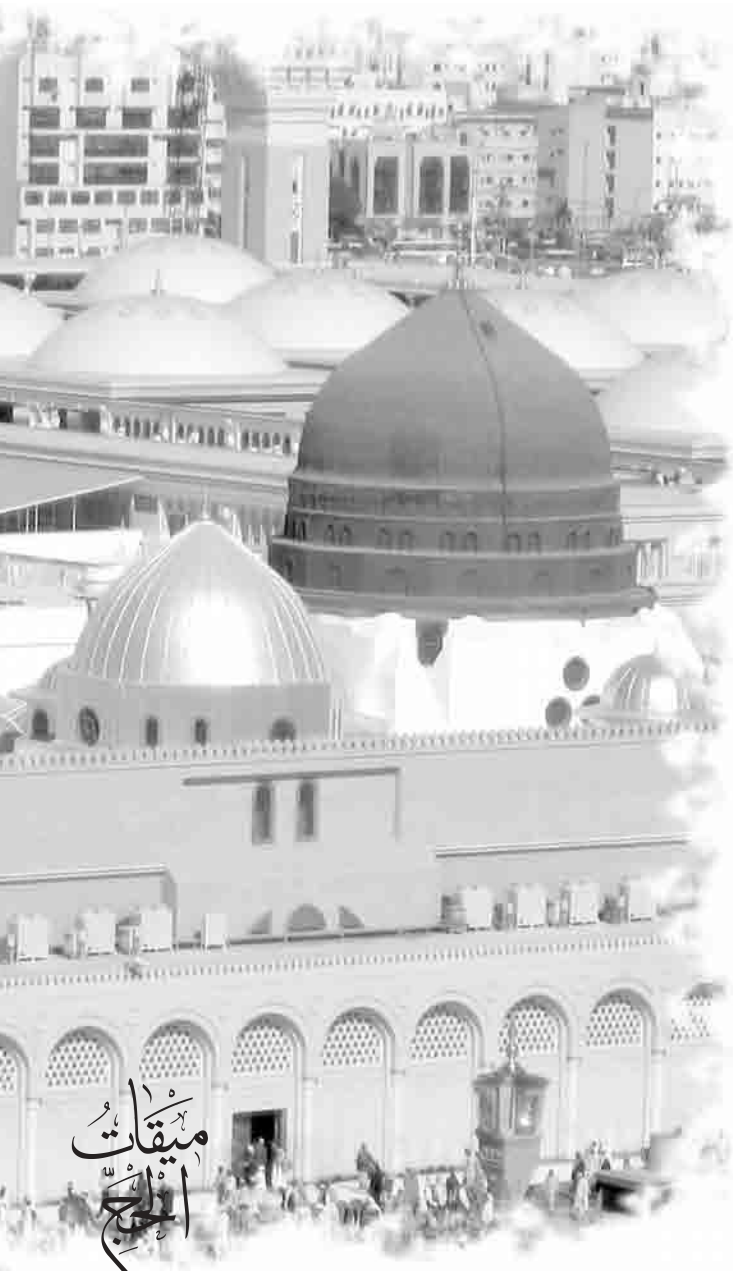

كـهَّانُ وادي النيل والعُرَفاءُ[٣٥]
إيزيسُ ذاتُ الملك حين توحدتْ
أخَذتْ قِوامَ أمورها الأشياءُ[٣٦]
لما دعوت النّاسَ لبّى عاقل
وأصَمَّ مِنْك الجاهلين نداءُ
أبو الخروجَ إليك من أوهامهم
والنّاسُ في أوهامهم سُجناءُ
ومِن العُقول جداول وجلامِدٌ
ومن النُفوس حرائر وإماءُ[٣٧]
داءُ الجماعةِ من أرسطاليس لم
يوصَف له حتى أتيْتَ دواءُ
فرسَمْتَ بعدَك للعِبَادِ حكومةً
لا سوقةٌ فيها ولا أمراءُ[٣٨]
اللّه فوقَ الخلق فيها وحدَهُ
والناسُ تحت لوائها أكفاءُ[٣٩]
والدِّينُ يُسْرٌ والخلافةُ بَيعةٌ
والأمرُ شُورَى والحقوقُ قضاءُ
الإشتراكيون أنتَ إمامُهم
لولا دَعاوى القوم والغُلواءُ[٤٠]

داويْتَ مُتَّئِداً وداوَوْا طَفْرةً
وأخفُّ من بعض الدواءِ الدّاءُ[٤١]
الحربُ في حقٍّ لديْكَ شريعةٌ
ومن السُّموم الناقعاتِ دواءُ[٤٢]
والبرُّ عِندكَ ذِمّةٌ وفريضةٌ
لا مِنَّةٌ ممنونةٌ وجباءُ[٤٣]
جاءتْ فوحّدَت الزكاة سبيله
حتّى التقى الكُرَماءُ والبخلاءُ[٤٤]
أنصفتَ أهلَ الفقر من أهل الغنى
فالكلُّ في حقِّ الحياة سواءُ
فلو أن إنساناً تخيَّرَ ملةً
ما اختار إلا دينكَ الفقراءُ[٤٥]

يا أيّها المُسْرَى به شرفاً إلى
ما لا تنالُ الشّمسُ والجوْزاءُ
يتساءلون وأنتَ أطهَرُ هيكل
بالروح أم بالهيْكل الإسراءُ[٤٦]
بهما سَموْتَ مُطهَّرَيْن كلاهما
نورٌ وريحانية وبهاءُ

فضل عليك لذي الجلالِ ومِنةٌ
واللّه يفعلُ ما يرى ويشاءُ
تغشى الغُيُوبَ من العوالم كلّما
طُويت سماء قُلِّدَتْك سماءُ(٤٧)
في كلّ مِنطقةٍ حواشي نورها
نونٌ وأنت النقطةُ الزهراءُ
أنت الجمال بها وأنت المجتلى
والكفُّ والمِرْآةُ والحسناءُ
اللّه هَيَّأ من حظيرةِ قُدسِهِ
نزلاً لذاتك لم يَجُزْهُ علاءُ
العرشُ تحتكَ سُدّةً وقوائماً
ومناكبُ الرُّوحِ الأمينِ وطاءُ
والرُّسل دون العرشِ لم يؤذَنْ لهمْ
حاشا لغيركَ موعد ولقاءُ

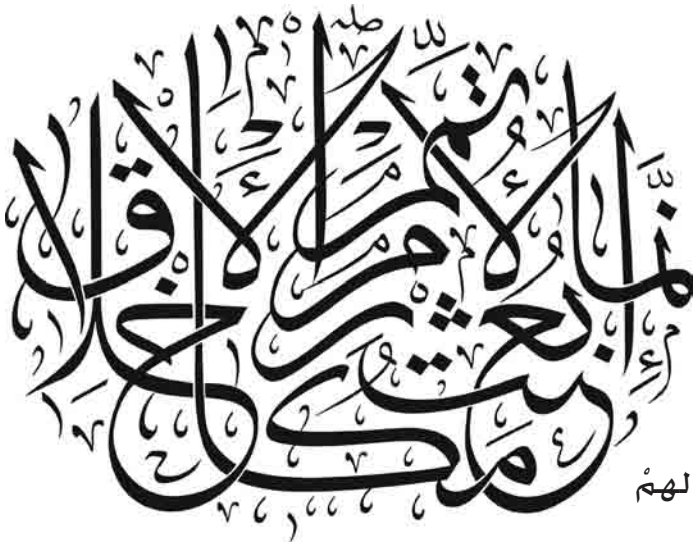

الخيلُ تأبى غيرَ أحمد حامياً
وبها إذا ذُكِر اسمه خيلاءُ
شيخُ الفوارسِ يعلمون مكانَه
إن هيجت آسادَها الهيجاءُ(٤٨)

وإذا تصدّى للظُبَى فمُهنّدٌ
أو للرّماح فصعْدة سمراءُ[٤٩]
وإذا رَمى عن قوسِهِ فيمينُهُ
قدَرٌ وما تَرْمي اليمينُ قضاءُ
مِنْ كلِّ داعي الحقّ همةُ سيفه
فلِسيفه في الرّاسيات مَضاءُ[٥٠]
ساقِي الجريح ومُطعمُ الأسرى ومن
أمِنَت سنابكَ خيله الأشلاءُ[٥١]
إنّ الشجاعَةَ في الرِّجال غلاظةٌ
ما لم تزنها رأفةٌ وسخاءُ
والحربُ منشرف الشّعوب فإن بغوا
فالمجدُ ما يدّعون براءُ
والحربُ يَبعثُها القويّ تجبُّراً
وينوءُ تحت بلائِها الضعفاءُ[٥٢]
كَمْ من غَزاةٍ للرّسول كريمةٍ
فيها رضىً للحقِّ أو إعلاءُ
كانت لجند الله فيها شِدّةٌ
في إثرِها للعالمين رَخاءُ
ضَرَبُوا الضلالةَ ضربةً ذهبت بها

فعَلى الجهالة والضلال عفاءُ
دَعموا على الحرب السلامَ وطالما
حقنت دِماءً في الزّمان دِماءُ

الحقُّ عِرضُ اللهِ كلّ أبيَّةٍ
بين النّفوس حمىً له ووِقاءُ
هل كان حول محمّد من قومه
إلاّ صبيّ واحد ونساءُ
فدعى فلَبَّى في القبائل عُصبةٌ
مُستَضعفونَ قلائلٌ أنضاءُ(٥٣)
رَدُّوا ببأس العزم عنه من الأذى
ما لا تَرُدُّ الصخرةُ الصماءُ
والحقُّ والإيمانُ إن صُبَّا على
برد ففيه كتيبةٌ خرساءُ(٥٤)
نَسفوا بناءَ الشرْك فهو خرائبٌ
واستأصلوا الأصنام فهي هباءُ(٥٥)
يمشونَ تُغضي الأرضُ منهم هيبةً
وبهم حيال نعيمها إغضاءُ
حتّى إذا فُتِحتْ لهم أطرافُها

لم يُطغِهِم تَرَفٌ ولا نعماءُ

يا مَنْ لَهُ عِزُّ الشفاعةِ وحدهُ
وهُو المَنَزّهُ ماله شُفعاءُ
عرشُ القيامَة أنتَ تحت لوائه
والحَوْضُ أنت حيالهُ السَّقاءُ
تروي وتسقي الصالحين ثوابهم
والصالحات ذخائر وجزاءُ(٥٦)
ألمثل هذا ذُقتَ في الدّنيا الطّوى
وانشَقَّ مِنْ خلَقٍ عليكَ رداءُ(٥٧)
لي في مديحك يا رسُولُ عرائسٌ
تُيِّمن فيك وشاقُهنّ جلاءُ
هُنّ الحسانُ فإن قبلت تكرماً
فمُهُورُهُنّ شفاعَةٌ حَسناءُ
أنت الذي نَظَمَ البريَّة دينُهُ
ماذا يَقولُ وينظم الشُعراءُ
المُصلِحون أصابعٌ جُمِعت يَداً
هي أنت بل أنت اليَدُ البيضاءُ
ما جئتُ بابكَ مادحاً بل داعياً

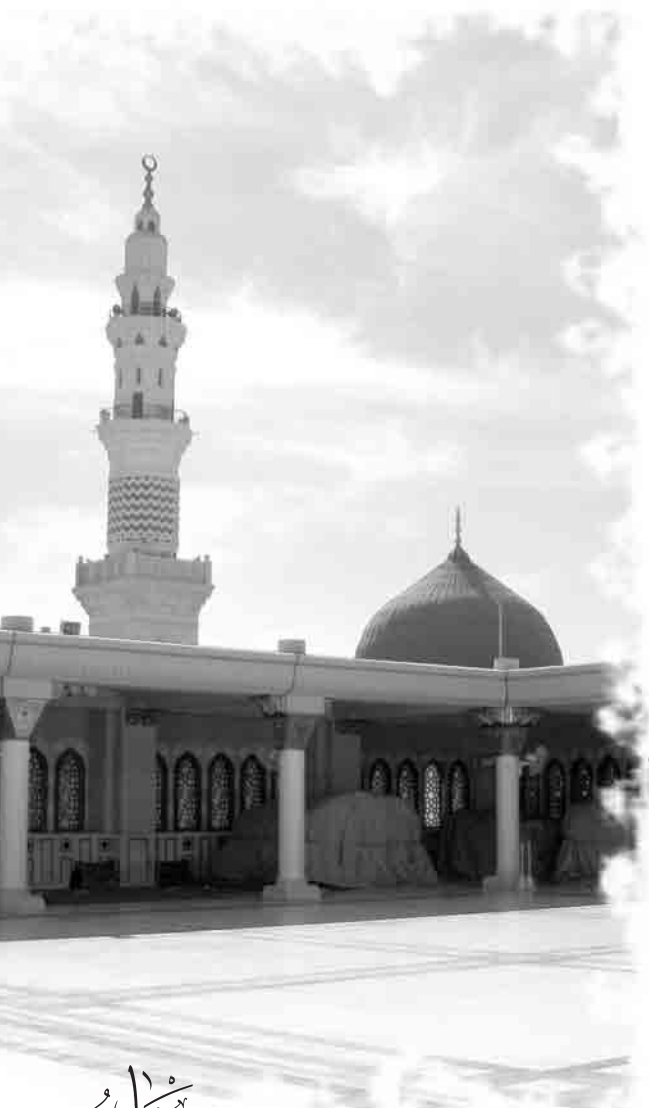

ومن المديح تضَرُّعٌ ودعاءُ
أدعُوك عن قومي الضِّعافِ لأزمةٍ
في مثلها يلقي عليك رجاءُ
أدرى رسُولُ اللّهِ أن نفوسَهم
ركبت هَواها والقلوب هواءُ
مُتفكِّكون فما تضمُّ نفوسُهم
ثقةً، ولا جَمع القلوب صفاءُ
رقدُوا وغرَّهُمُ نعيمٌ باطلٌ
ونعيمُ قومٍ في القُيودِ بلاءُ
ظَلَمُوا شريعتك التي نلنا بها
ما لم ينل في رومة الفقهاءُ
مشتِ الحضارةُ في سَناها واهتدى
في الدِّين والدُّنيا بها السُّعداءُ
صلى عليك الله ما صحِب الدُّجى
حادٍ وحنّت بالفلا وجناءُ[٥٨]
واستقبل الرضوان في غُرفاتهم
بجنان عدن آلُكَ السُّمحَاءُ
خيرُ الوسائل مَن يقع منهُمْ على
سَبب إليك فحسبي الزهراءُ

الهوامش

١. الـروح: هـو الـروح الأمـين جبريل الملائك: أي الملائكة، والملأ: أشـراف القوم البشـراء: جمع بشـير، والبشير الذي يحمل البشرى وهي كلّ نبأ سارّ.

٢. العرش يزهو: أي يشرق ضياءً السدرة: هي سـدرة المنتهى ويقال: إنها شجرة نبق على يمين العرش العصماء: مثنى الأعصم وهو الظـبي الذي في ذراعيه بياض.

٣. الفرقـان: القرآن الكريـم الربى: جمع ربوة وهي المرتفع من الأرض الشذيّة: ذات الشذى العطر والطيّب.

٤. الرواء: حسـن المنظر، والسلسل: الماء العذب.

٥. الطغراء: هي الطرّة عند العامّة مأخوذة من طغـرى بالقصر، وهـي صحيفة تصـدر بها الأوامر التي تكتب بالقلم العريض.

٦. الحنفاء: جمع الحنيف وهو من كان على دين إبراهيم عليه السلام أي الدين الصحيح، والحنيف أيضاً: الذي ميله إلى الإسلام صحيح لا شبهة فيه، والجمع حنفاء.

٧. تضوّعت مسـكاً: أي انتشـرت فيها رائحة المسك الغبراء: الأرض.

٨. قسـماته: القسـمة ما بـين الوجنتين والأنف والمحيّا: الوجه.

٩. الخليـل: أي إبراهيـم عليه السلام السـيماء: العلامة.

١٠. أثنـى عليه: مدحه وأطـراه العذراء: السيدة مريم.

١١. الذوائب: جمع ذؤابة وهي هنا ألسـنة النـار أو اللهب خمود النار: سـكون لهيبها وانطفاؤه.

١٢. الآي: جمع آية، وهي العلامة أو العبرة، والمقصود بقوله: تـترى، توالي نزول آيات القرآن وحياً على النبيّ الخوارق: المعجزات جمّة: عظيمة.

١٣. مخايـل: جمع المخيلـة، وهي المظنة، أي ظهرت مخايل فضله.

١٤. يستسقي الاستسـقاء: طلب السقي، والحيا: المطر تستدفع البأساء: أي يدفع الفقر والشدّة.

١٥. سخوت: السـخاء الجود الأنواء: جمع نوء وهو المطر.

١٦. الضغن: الحقد البغضاء: الكراهية.

١٧. التحلّم: تكلف الحلم أي السـماحة الرياء: التملق والخداع.

١٨. النديّ: النادي.

١٩. بنيت: من بنى بأهلـه أي زفّ إليهم، وابتنى: صار له بنون يمتدح سيرة النبيّ مع أهله ورفقه بهم.

٢٠. العدا: الأعداء الغضنفر: الأسد كناية عن شـجاعة النـبيّ في قتـال أعدائه

النكباء: ريح يقول: إن النبيّ صلى الله عليه وآله مقدام في مواجهة أعدائه وسريع كالريح النكباء.

٢١. سطاك: جمع سطوة وهي الغلبة والقهر نداك: جودك وعطاؤك.

٢٢. لم ينض: أي لم يسلّ المهنّد: السيف.

٢٣. باغي المعجزات: طالبها الغناء: ما يغنى.

٢٤. التقت اللغى: أي اجتمع أصحاب اللغات البلغاء: أصحاب البيان والفصاحة.

٢٥. ذكاء: من أسماء الشمس يشير في الأبيات ١٠ و ١١ و ١٢ إلى إعجاز القرآن وشمول معانيه وكيف جمع شؤون الدين والدنيا.

٢٦. حراء: هو غار حراء الذي كان النبي صلى الله عليه وآله يتعبّد فيه، وفيه نزل الوحي عليه، وإليه لجأ حين غادر مكّة إلى المدينة.

٢٧. أزرى به أو بمنطقه: عابه البيان: بلاغة القول وفصاحة الكلام.

٢٨. المشرع: المورد الذي يستقي منه الحكم الغوالي: أي الحكم الجليلة الغنية بمراميها.

٢٩. صبغة الفرقان: نوعه.

٣٠. النّهى: العقل الدوح: جمع دوحة، وهي الشجرة العظيمة.

٣١. سلافته: السلافة: أجود الخمر الندماء: جمع نديم المنادم على الشراب، جمع ندماء وندمان.

٣٢. السمحة: الملّة ذات الجود والسماحة الغراء: مؤنث الأغرّ وهو السّيد الشريف، وهو الحسن والكريم الأفعال.

٣٣. سقراط: أحد كبار فلاسفة الإغريق الثلاثة، والآخران هما أفلاطون وأرسطو.

٣٤. الزعاف: السمّ القاتل يشير إلى شرب سقراط السم دفاعاً عن الحقيقة، وكان بوسعه أن ينجو من الموت ولكنه آثر أن يقدم حياته من أجل توعية الشباب والنهوض بمجتمعه فكان من أوائل شهداء الواجب في تاريخ البشرية.

٣٥. العرفاء: جمع عرّاف وهو المنجم.

٣٦. إيزيس: من آلهة قدماء المصريين.

٣٧. يقول: إن بعض العقول متحررة وهي أشبه بالجداول الرفرافة، ولكن هناك بالمقابل عقول جاهلة وهي صلبة كالجلامد أي الصخور، والنفوس مثل العقول بعضها حرّ وبعضها الآخر راغ في العبودية كالإماء.

الجلامد: الصخور جمع جلمد ، الإماء: الجواري جمع أمة.

٣٨. السوقة: الرعية من الناس، سمّوا كذلك لأن الملك يسوقهم ويصرفهم إلى ما شاء من أمره.

٣٩. الأكفاء: المتساوون في الحقوق والواجبات.
٤٠. الدعاوى: كناية عن المزاعم الباطلة الغلواء: الغلو والمكابرة.
٤١. المتئد: المتأني الذي يطيل الرويّة ويتمهّل في تصريف الأمور الطفرة: نقيض التّأني من طفر يطفر أي وثب، والطفرة الوثبة إلى الارتفاع، وقد كنّي بالطفرة في سياق البيت عن التصرف الأرعن غير المسؤول.
٤٢. يقول: إن محمّداً جعل الحرب مشروعة في سبيل الحقّ، وهي في هذه الحال كالسم الذي يكون منه دواء وإن كان قاتلاً.
٤٣. البرّ: الإحسان الذمّة: العهد المنّة: العطيّة، والمنّة الممنونة: العطية التي تؤذي، لأنها متّبعة بالمنّ.
٤٤. الزكاة: مقدار معلوم يقدمه المرء من ماله ليطهره به، والزكاة من أركان الإسلام.
٤٥. يقول: إن فريضة الزكاة إنصاف للفقراء من مال الأغنياء وبها يتساوى الفقير والغني في الحياة.
٤٦. المسرى به: من الإسراء وهو السير ليلاً الجوزاء: برج في السماء يقول: إن القوم يتساءلون هل كان إسراؤك بالروح أم بالهيكل أي الجسم؟ ويستطرد في البيت التالي ليقول بأن الإسراء كان بهما معاً، أي بالروح والجسم.
٤٧. تغشى الغيوب: من غشي المكان أي أتاه.
٤٨. الآساد: الأسود الهيجاء: الحرب.
٤٩. الظّبي: جمع ظبّة وهي حدّ السيف المهنّد: السيف الصعدة: القناة المستوية.
٥٠. المضاء: مصدر مضى السيف مضاء أي قطع.
٥١. الأشلاء: جمع شلو وهو العضو من الأعضاء، والأشلاء أيضاً: أعضاء الإنسان بعد البلي والتفرّق.
٥٢. ينوء تحتها: يرزح.
٥٣. العصبة: الجماعة الأنضاء: جمع نضو وهو المهزول من الإبل ونحوها.
٥٤. البرد: الثوب، الرداء الكتيبة الخرساء: التي لا يسمع فيها صوت.
٥٥. نسفوا بناء الشرك: هدموه استأصل: اقتلع الشيء من جذوره الهباء: الغبار.
٥٦. الذخائر: المؤن، جمع ذخيرة.
٥٧. الطوى: الجوع الخلق: من خلق الثوب أي بلي.
٥٨. الحادي: سائق الإبل الوجناء: الناقة الشديدة الوثيقة الخلق.